الأطلال
في الشعر الجاهلي
قراءة تعريفية

محمود محمد عبدالحميد

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأطلال في الشعر الجاهلي
[قراءة تعريفية]

د/ محمود محمد عبد الحميد
مصر

ضمن مشروع: "تيسير النقد"

نستهل حديثنا بسؤال مهم، وهو: ما هو الطلل؟ وما قيمته؟ وما أهميته؟

- تهيئ لنا معلوماتنا عن العصر الجاهلي فكرة عن حياة الانتقال والترحال لأسباب متعددة, على رأسها الرحلة في طلب العشب ومواطن الماء. وفي هذا السياق فإن العرب ينقسمون إلى طبقتين:

(١) **الطبقة الغالبة:** وهي القبائل التي لها مواطن محددة, وديار ثابتة, ولها جغرافية معلومة, هي منازل هذه القبيلة, وهذه الطبقة قد يرحل بعض أفرادها, إما لطلب العشب والمياه أو التجارة وما شابه, ولكنهم يعودون بعد انقضاء موسم الرحلة إلى بلادهم ومنازلهم.

(٢) **الطبقة الباقية:** وهي أقلية في القبائل العربية, وهم فئة من البدو ممن لا منازل ثابتة لهم, فهؤلاء يتبعون مصادر عيشهم باستمرار, وليس لهم مواقع محددة.

- **إذن...** لم يكن الارتحال أمرًا عامًا يمارسه كل العرب, وكذلك فإن الإقامة الدائمة بالمكان لم تكن طبيعة الحياة في هذا الزمن, وفي حال الترحال فإنّ هذه الأشياء التي تركوها خلفهم, هي أطلالهم, والواحد منها طلل, وهذه الأطلال هي منازلهم وديارهم السابقة, فهم يتوقفون عندها, يتذكرون أيامهم بها, وكما شغلت هذه الأطلال, أذهان الشعراء قديمًا, فإنها – كذلك – نالت اهتمام النقاد, فحاولوا فهمها وتفسيرها.

- ولقد وجد النقاد – على مر العصور – في المقدمات الطللية معاني كثيرة، واستنتجوا منها أمورًا عدة, ويمكن تلخيص الجدل الثقافي الدائر حول الأطلال فيما يلي:

١- تمثل الأطلال صورة حضارية صادقة عن عرب الجاهلية؛ فهي تعكس نظام حياتهم وكيفية معيشتهم, وأن حضارتهم تقوم على الوعي البدائي بالكون, حيث كان الجاهليون يعيشون في نظام بدائي مضطرب, فالاستقرار مؤقت, ورحلة البحث مستمرة.

٢- تمثل هذه الأطلال الصورة النفسية التي كان عليها الجاهلي, وكيف كان يفكر ويشعر ويتعامل, فهذه المقدمات طافحة بمشاعر الحسرة والخوف وفقدان الأمان, وتأتي كل هذه المشاعر السلبية من إحساسهم بالعدم والفناء, وأن كل شيء يصيبه التقادم والبلى, وهذه الأطلال هي الصورة التي يظهر فيها صراع الفناء ضد الحياة.

- **ويقف الشاعر متأملاً هذا المكان الذي كان عامرًا بالأحبة,** مليئًا بالأنس والحياة وقد تبدل وتغير, وأصبح من الصعوبة أن يتعرف عليه الشاعر, فتنهمر على لسانه أفكاره الخاصة عن وضعية الإنسان في الحياة, عن فنائه وبقائه, صراعاته ضد الحياة التي تنتهي بالموت والفناء والعدم.

- **ويرى الشاعر الأطلال ما زالت تقاوم**, ولا تستسلم للفناء بسهولة, وهنا تصبح معادلاً رمزيًا لرغبته الدفينة في مقاومة العدم. ففي معلقة امرئ القيس نجد:

تـــرى بعـــر الآرام في عرصـــاتها وقيعانهـــا كأنـــه حـــب فلفـــل

- ذهب علماء النفس إلى أن الحياة قائمة على صراع كبير لا ينتهي بين غريزتين:

أ- غريزة الحياة. ب- غريزة الموت.

- **وكل أفعال الإنسان في الحياة, ومنجزاته إنما هي ضمن هذا الصراع في محاولة للتغلب على غريزة الموت أو تعطيلها, أو تأجيل فناء الإنسان بعد موته من خلال السمعة الحسنة**, ومن هنا يكون التقدم العلمي والطبي والهندسي والعمراني... إلخ, وكل هذا ما هو إلا منجزات الإنسان في سبيل التغلب على غريزة الموت, وإعلاء غريزة الحياة.

٣- **تمثل هذه الأطلال الصورة الفنية للعصر الجاهلي**؛ حيث أصبحت تقليدًا جماليًا يجب البدء به في مطالع النصوص, وفي هذه المطالع نجد الألفاظ والتعابير والصور والتشبيهات, نجد كل ذلك مستوحى من تجربة يومية متكررة, هي جزء من طقوس الحياة وكل ذلك اندمج مع الفن الشعري بصورة استساغها الذوق العام وشجعت عليها الطبيعة الهائلة, والعقلية العربية ذات النزوع التقليدي المحافظ على تراث الماضي.

- وعلى الجملة يمكن اختزال الكلام الكثير حول: لماذا المقدمات؟ في النقاط الآتية:

(١) **أول تفسير تاريخي لتعليل ذلك هو نص ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء"**, حيث ذهب إلى أن بداية الشاعر القديم بالطلل كانت لاجتذاب الأسماع إليه، وقد اعتبر هذا النص من أشهر وأهم نصوص النقد العربي على الإطلاق, وهو تفسير لبناء النص الشعري كله, ولماذا هو مبدوء بالأطلال، وتبدو المقدمات الطللية عنده نوعًا من استدراج مشاعر القارئ, إنها أشبه بالشراك التي ينسجها الشاعر كي يستميل مشاعر القراء إلى شيء يتلذذون به, فإذا تحقق له ذلك, انتقل إلى موضوعات أخرى هي في الأساس الهدف الرئيسي من القصيدة.

- **وقد فرض هذا التفسير نفسه على ساحة النقد**, وأصبح النقاد يُلزمون الشعراء بذلك, ورغبوا بصرامة غير منصفة في أن يأتي الشعراء على شاكلة هذا النموذج الذي وصفه ابن قتيبة, وكان هذا سببًا في نشوء صراع نقدي طويل بين فئة آمنت بصحة كلام ابن قتيبة, وفئة لم تقتنع بهذا الكلام, وهذا الصراع معروف باسم " الخصومة بين القدامى والمحدثين" وقد فرضت هذه الخصومة نفسها على الساحة الثقافية حتى القرن العشرين, ووجدنا آثارًا لها في الشعر الحديث.

(٢) **التفسير الثاني: ومن أبرز من تحدثوا عنه الدكتور حسين عطوان** وقد ذهب إلى اعتبار أنَّ هذه المقدمات ما هي إلا مجرد ذكريات, يقف الشاعر على مكانٍ كان قد أقام فيه من زمن, وهذا الوقوف يفتح شباك ذاكرته على صور من الماضي, وهو بدوره يحكي لنا عن هذه الصور, وهذا كل ما في المقدمات.

(٣) **التفسير الثالث: ذهب إليه الدكتور يوسف خليف**, الذي رأى في المقدمة ما يشبه قتل الفراغ, فلا شيء يدفع الشاعر إلى ذلك إلا إحساسه بالملل, فيقف ويتكلم ويثير بعض المشاعر لعله يلهي نفسه, ويتقبل جمهوره هذا – أيضًا – بنفس المنطق؛ فالحياة في الصحراء خالية من أنواع اللهو والمتع

والوقت طويل وممتد, ولا شيء يقتل الوقت, ومن هنا يتحدث الشاعر عن أمور مثل الأطلال يتسلى بها ويسلي الآخرين الذين يشعرون بطول الوقت.

- **وإن صح هذا التفسير**, فإنه ربما يبرر الإصرار على تعداد الأماكن, وذكر ما يحيط بالأطلال من كل الجهات بصورة تبدو مبالغة فيها؛ إذ ما معنى أن يقف الشاعر على طلله، ويعدد أسماء الأماكن وكأنه يشرح درسًا في الجغرافيا؟

(٤) التفسير الرابع: وهو أشهر التفاسير الحديثة, قدمه مستشرق ألماني اسمه :"فالتر براونه" في محاضرة ألقاها في سوريا عن الوجودية في الشعر الجاهلي من خلال معلقة طرفة بن العبد, وربط المستشرق مشاعر طرفة بن العبد بالفكر الوجودي، ورأى في الشعر الجاهلي فكرًا وجوديًا يتلاقى مع الفكر الوجودي الأوروبي.

- **ولقيت هذه المحاولة قبولاً مذهلاً لدى الدارسين العرب؛** لأنه حاول ربط التراث الجاهلي بالفكر الفلسفي الأوروبي في تيار فلسفي عميق معنويًا، مثل المذهب الوجودي, بما يوحي بأن أحدث منجزات الفكر العالمي موجود لدينا في تراثنا.

- **وإذا صح أن الشعر الجاهلي يعكس القلق الوجودي,** أو شيئا قريبا منه، وفيه شيء من مفهوم الحرية الوجودية، ويبدو فيه الشاعر مغتربا عن ذاته وبيئته، إذا صح هذا، وكان هذا بدافع الجهل الديني الذي سيطر على عرب الجاهلية، وترك لديهم الأسئلة الوجودية الكبرى عن الحياة والموت والعدم والإرادة والاختيار. فلماذا لم تختف المقدمة الطللية بعد ظهور الإسلام وقد جاء القرآن موضحا كل هذه الأسئلة الوجودية الكبرى، ولماذا استمرت المقدمة الطللية في الشعر الإسلامي؟

- **إن قيمة ربط التراث العربي بالمنجز الثقافي الأوروبي لا تحقق إلا إحالة معنوية واحدة,** وهي إعطاء يقين مزيف بأننا أمة متحضرة، ولدينا تراث إنساني عظيم، وكل شيء يتوصل إليه الأوربيون نجده عندنا في تراثنا.

(٥) التفسير الخامس: يرى أن هذه المقدمات جاءت نتيجة استجابة نفسية لثلاثة دوافع قهرية كان الجاهلي واقعًا تحتها, وهي:

أ/ القمع الجنسي: فثمة كبت جنسي واضح في شعر الغزل؛ إذ اعتبر العرب من سمات المحبوبة أن تكون عفيفة, وتقتضي عفتها ألا تستجيب لإغواء الشاعر بالمواعدة واللقاء, ومن ثم فهي تهرب, وتعرف كيف تصده دون أن تقطع علاقتها به.

ب/ الاندثار الحضاري: إن الأطلال تعكس اللحظة الفارقة التي يقف عندها الطلل وهو يقاوم الفناء, إنها لحظة ما قبل الاختفاء, ومن بعدها يصبح هذا الطلل مجرد ذكرى لم تعد موجودة, إن هذه اللحظة حدثت لحضارات عربية قامت, مثل حضارة مأرب وسدها, وبعض الممالك التي كانت موجودة في الجزيرة, ثم أصابها البلاء والزوال, وتكون الوقفة على الطلل أشبه بتمجيد هذا الجزء الذي يقاوم, ولولا هذه الإشارات الشعرية لفقدت هذه الأطلال وجودها للأبد.

ج/ قحل الطبيعة: وهذا هو العنصر الثالث الذي تمثله المقدمات الطللية؛ فقد كانت الطبيعة كأنها تحارب هؤلاء الناس, تنتهك مشاعرهم بالجفاف والحر, والقحط والسراب والغبار, وريح السموم, وكان وجود الإنسان الجاهلي في هذه الظروف أشبه بمغامرة غير مرغوب فيها, وجاءت هذه المقدمات لتجسد موقف الإنسان إزاء عنف الطبيعة هذا.

(٦) **التفسير السادس:** ويذهب إلى أن هذه المقدمات كانت هي أول ما قال العرب، وكان ذلك في مرحلة تاريخية سابقة, وكانت الأطلال هي الغرض الوحيد عند العرب, وفي أول أمر الشعر لديهم لم يكن لديهم موضوع يتحدثون فيه غير الأطلال, وكان التجويد فيها دليل الشاعرية, ولما أراد الشعراء أن يتوسعوا في الموضوعات وطرقوا موضوعات جديدة, فكان الشاعر يريد أن يثبت لسامعيه أنه شاعر مميز, فيتكلم فيما يتفق الناس جميعًا حوله على أنه الشعر, ثم بعد ذلك يدخل في موضوعاته الثانوية.

– كما يجب علينا أن ننهي هذه "الثرثرة الثقافية"، بالتأكيد على أن كل الذي سبق إنما هو استنتاج، ومحاولات تفسير وتبرير، وليس على أي منها دليل، وليس فيها شيء أكثر دقة من غيره، لأن الجاهليين لم يقولوا شيئا في تفسير المقدمات وتبرير وجودها. ولما غاب تبرير عرب الجاهلية لفعلهم، لم يعد أمامنا إلا تبرير الظاهرة وتفسيرها في ضوء معارفنا نحن، وما يمكن أن يتوصل إليه تفكيرنا المعاصر عن ظواهر ثقافية قديمة جدا.

وسنتوقف عند مجموعة مختارة من هذه المقدمات الطللية

أولاً: مقدمة معلقة امرئ القيس

١- قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل — بسقط اللوى بين الدخول فحومل
٢- فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها — لما نسجتها من جنوب وشمأل
٣- ترى بعر الآرام في عرصاتها — وقيعانها كأنه حب فلفل
٤- كأني غداة البين يوم تحملوا — لدى سمرات الحي ناقف حنظل
٥- وقوفًا بها صحبي علي مطيهم — يقولون لا تهلك أسىً وتجمل
٦- وإن شفائي عبرةَ مهراقةَ — فهل عند رسم دارس من معول
٧- كدأبك من أم الحويرث قبلها — وجارتها أم الرباب بمأسل
٨- ففاضت دموع العين مني صبابة — على النحر حتى بل دمعي محملي
٩- ألا رب يوم لك منهن صالح — ولاسيما يوم بدارة جلجل

– **التعليق:** تمثل معلقة امرئ القيس أهم النصوص الشعرية الجاهلية على الإطلاق, وامرؤ القيس هو أمير شعراء العصر الجاهلي, وشعره ذو خصوصية وتفرّد غير موجودين لدى غيره, وهذه المقدمة الطللية فرضت ظلها على الشعر الطللي – بعد ذلك – في العصر الإسلامي.

– ويمكن تلخيص المحاور الرئيسية التي تنهض عليها هذه المقدمة فيما يلي:

(أ) **التصعيد العاطفي:** حيث يبدو الشاعر في حالة هياج عاطفي, فهو مُثار منذ مطلع النص, بل ربما قبل بدء النص, فهو مبدوء بقوله "قفا نبك", وقفا فعل الشرط, ونبك جواب الشرط, فكان الهدف والمغزى والمنحى من هذا الوقوف على الطلل يتمثل في البكاء, لذلك يرد في التسعة أبيات البكاء والإشارة إليه صراحة في الأبيات ١–٤–٦–٩, ويرد ضمنا في البيت الخامس, فمن كلام أصحابه له, وهم من شدة إشفاقهم عليه قد أوقفوا المطي من أجله, وطلبوا منه الصبر والتمسك وأن يتجمل,

ونفهم من هذا أنه كان يبكي, ولكن البكاء غير مذكور صراحة, كما في البيت الأول (نبك), والرابع كله كناية عن البكاء.

- **وهذا التصعيد العاطفي يبدو ساذجًا إلى درجة ما**؛ إذ سرعان ما يبدو الشاعر مهتاجًا جدًا, من تذكر فلانة, فيقول له أصحابه "امسك أعصابك" فيستجيب لهم ببساطة؛ لأنهم ذكروه بموقف سابق يوم أن بكى على دار أم الحويرث, ودار أم الرباب, فيتذكر هو هاتين المرأتين وكم كانتا جميلتين بالفعل فيبكي – مرة ثانية – على ذكراهما, وهو واقف يبكي على دار فلانة التي لم يذكر اسمها في الأبيات من الأول إلى السادس, وحتى الجزء الباقي من المعلقة ينطلق من هذه الفرضية؛ فالشاعر كأنه يعاني من حالة هيجان عاطفي, فيبكي على فلانة, ثم يسكت ليبكي على فلانة, ثم يسكت ليبكي على ثالثة, ولا شيء يفوق مغامرته عند دارة جلجل, ويتحدث عن مغامرة أخرى مع فتاة اسمها عنيزة.

(ب) حضور المرأة المفاجئ في الطلل؛ فلا نعرف: هل المقدمة في الأطلال أو عن المرأة؟ ويبدو التلازم بينها شديدًا, فالبكاء "من ذكرى حبيب ومنزل" وليس الدار وحدها, وتبدو المقدمة كأنها موجات عاطفية, كل موجة تحمل معها امرأة.

(ج) تعداد الأماكن وهذا أمر واضح في الشعر الجاهلي؛ فالشاعر وهو يقف عند أطلاله لا يقول هذه هي فقط, بل حريص جدًا على أن يوثق كلامه, وكأنه محل شك, وكما نكتب نحن عقود العقارات, وتنص على حدود العقار من الجهات الأربع, كذلك يفعل امرؤ القيس, فالمنزل موجود بسقط اللوى, هذا هو المكان الأكبر الذي يحوي الطلل, وهذا الطلل موجود بين، ومحاط بالأماكن "الدخول/ حومل/ توضح/ المقراة" وربما كان لهذه الأسماء دلالة على أيامه, ولكنها غابت عنها ولم نعد نعرف عن هذه الأشياء إلا أنها أسماء أمكنة.

(د) صورة الريح تهيل التراب: وهذه هي الصورة التي سنجدها كثيرًا في الشعر بعد ذلك, فلا أطلال بدون هذه الإشارة إلى حركة الرياح تأتي من جهات متعددة, وكل ريح تحمل معها بعضًا من الرمال, وتغطي هذه الأطلال, وربما تهب رياح من جهة معاكسة, وتنزع شيئًا من هذه الرمال عن نفس الأطلال, ويظل الطلل بحركات الرياح هذه واقعًا تحت لعبة الخفاء والتجلي التي تمارسها الطبيعة عليه, فلا هو يقاوم ويظهر بصورة أبدية, منتصبًا في وجه الريح, ولا هو يستسلم وتندثر, وهذه قيمة فنية في حد ذاتها, وقف عندها الشعراء كثيرًا, وظلت متواترة في الشعر بعد ذلك.

(هـ) وصف المكان الخرب: حيث يبدي الجاهلي ميلًا عاطفيًا لذلك, وله مقدرة على وصف المكان الذي تهدم مستمتعًا بحلول الخراب عليه, ولكنه الخراب الذي لا يؤدي إلى الفناء المطلق, إنها الفكرة السائدة في الشعر الجاهلي عن شعور الإنسان بالقهر, قهر الطبيعة لمنجزاته, وهذا امتداد لمفهوم العدم الذي سيطر على نفسية عرب الجاهلية.

ثانيًا: مقدمة معلقة زهير بن أبي سلمى

١- أمن أم أوفى دمنة لم تكلم	بحومانة الدراج فالمتثلم
٢- ودار لها بالرقمتين كأنها	مراجع وشم في نواشر معصم
٣- بها العين والأرآم يمشين خلفة	وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
٤- وقفت بها من بعد عشرين حجة	فلأيا عرفت الدار بعد التوهم

٥- آثـــافي ســـفعا في معـــرس مرجـــل ونؤيـــا كجـــذم الحـــوض لم يتـــثلم
٦- فلمـــا عرفـــت الـــدار قلـــت لربعهـــا ألا عـــم صـــباحا أيهـــا الربـــع واســـلم
٧- تبصـر خليلـي هـل تـرى مـن ظعـائن تحملـــن بالعليـــاء مـــن فـــوق جـــرثم

- **تجمع مصادر الأدب على أن هذه المعلقة قالها زهير تمجيدا لفعل رجلين هما هرم بن سنان والحارث بن عوف**، وهذه الفكرة (من الحرب إلى السلم) هي التي تتبطن جو هذه المعلقة وكل مفاصلها تعكس هذا التـوتر الذي يعيشه الخارج من الحرب إلى السلم، قبل أن يستقر في السلم، اللحظة الفاصـلة، لحظـة أن يحاول أن ينسل خارجا من الدمار إلى الأمن.

- **وتأتي هذه المقدمة الطللية في مفتتح قصيدة تحاول ترسيخ هذه الحالة**. ومن مبتدأ المعلقة نجد "أم أوفى"، وهي ليست محبوبة، إنها أم زهير. وهذه حالة فريدة، إذ يبتدئ الشاعر بأطلال أمه، إنها دياره هو التي عاش فيها طفولته، مع أمه، يوم أن كان يشعر بالحنان والأمن العائلي.

- **وهذه الأطلال محفورة في ذاكرته**، إنها في حومانة الدراج، والرقمتين، والمتثلم، ولأسباب ما (ليس لها ذكر) رحل الشاعر عنها، عانى مرارة أن يكون حيا، اغترب هنا وهناك، ثم قرر أن يعود إلـى لحظة الأمان العائلي، عند أمه، الرمز الوحيد الصادق في الحياة على الحب. وهذه الأطلال (لـم تكلم) الشاعر، إنها حجارة، لعله يريد أن يقول إن شوقه إلى المكان، إن لهفته، وحنينه جعله يجري معها حوارا، يصب عليها مشاعر الفرح بالعودة إلى ذكريات الطفولـة البعيـدة، سـبقته لهفتـه ومشاعره، ولكن المكان جامد، لم يعبر عن مشاعر مماثلة.

- **وقف ووجد ما تبقى منها يشبه (مراجيع وشم) هذا هو المشبه به**، ويبدو أن الوشم كان في الجاهلية رمزا له دلالة ومن هنا إصرار الشعراء الجاهليين على تشبيه أطلالهم بهذه الصورة، إن بقايا الأطـلال بها غموض، شيء سري، مبهم، لكنه يثير القلق، مثل بقايا الوشم. ولم يتبق منه إلا "مراجيع"، أي بقايا، فهذا إيذان بزوال القيمة الرمزية للوشم، ويشعر صاحبه بالتوتر والقلق إذ يصـبح عرضـة لهجمات المردة والجن، ولعل هذا يفسر باستمرار أن الأطلال تشبه بقايا الوشم، ولم تشبه الوشم، إنها تجلب إلى الذهن مرحلة تقهقر قيمته، زوال رمزيته، لحظة انسحاب الحماية التـي يمنحهـا الوشم لصاحبه.

- **وإذا غاب إحساس الأمن من نفس الشاعر**، فإن ثمة عالما آخر يشعر بالأمان، إنها (العين) بقر الوحش، (والآرام) الغزلان، والبيت الثالث يعكس حالة الشعور بالأمان المطلق لدى هذه الكائنـات فإنهـا تمشي وراء بعضها (خلفة) ولو شعرت بالذعر لتفرقت تفرق العقد.

- **ويعرف الشاعر الأطلال في البيت الرابع بعد مشقة**، وهذه الأطلال يسردها في البيت الخامس، إنها رمز استمرار الحياة، قد تكون حجارة (وهي بالفعل كذلك) لكنها أدت خدمة جليلة إذا سـاعدت أقوامـا على العيش، واستمرار الحياة، لأنها كانت أثافي (وهي الحجارة التي يطبخون عليها طعـامهم)، ولولا هذه الأثافي لما تمكن القوم من إعداد الطعام، ولولا هذه الحجارة التي استخدموها (نؤيا) لعم الغرق ديارهم، واستحالت الحياة فيها. إن هذا هو السر الذي يشد الشاعر إلى هذه الحجارة، إنـه قيمتها الرمزية في مواصلة الحياة، ومقدرتها الفائقة على مساعدة الإنسان في أن يجتاز مراحـل العدم إلى مراحل الحياة. ومن ثم يكون الدعاء لها في البيت الأخير، وهي الحجارة التي لا تخضع لما نخضع له نحن من عوامل الفناء والهدم.